إخراج هوليودي لِفِعل لاأخلاقي

إلياس سحّاب*

«حجة الأقوى هي الأفضل دائماً»

لافونتين –

في المجال السياسي المباشر

١– لا شكّ أنّ أهمّ ما يلفت الانتباهَ في هذه اللحظة التاريخية الانتقالية هو حالة السّكون التي تحيط بالحدث على الصعيد الشعبي، وفي كل مستوياته الاجتماعية والجغرافية. وهذه واقعة تُسجَّل لصالح الجهة التي تُخطّط وتعمل لإنجاز هذه المرحلة من المخطّط الاستراتيجي الذي يعود تاريخُه إلى قرنٍ ونصف القرن.

٢– إنّ ما تمّ اليوم هو مجرّد إعلان لنهاية مرحلة من الصراع وبدايةٍ لمرحلة أخرى، ولا يحقّ لنا أن نُصاب بالدهشة للنجاح الذي يبدو أنّه يُحالف إنجاز هذا الانتقال من مرحلة الى أخرى، وللسهولة التي يبدو أنه يتمّ بها. وأمّا صناعة الحالة الجديدة فمُستمرّةٌ بزخمٍ كاملٍ وتخطيطٍ دقيق يشمل كلَّ الأقاليم العربية، ويعيد حراثةَ كلّ نواحي الحياة العربية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإعلامياً ونفسياً، منذ ربع قرن بالتمام والكمال، أي منذ العام ١٩٦٧، من أجل أن تُستكمل النتائجُ العسكرية لحادث الخامس من حزيران بالنتائج الأخرى التي نراها أمامناالآن، وعلى أتم ما تكون من النضج والتكامل.

٣– وما يلفت الاهتمام أيضاً أنّ أصحاب النجاح المدوّي يملكون من الخبرة والحنكة ما يدفعهم إلى عدم الاطمئنان كلّيا إلى حالة السكون العربي التي تحيط بالحدث حتى الآن. ولذلك نراهم يحيطون سعيهم إلى تطبيق الاتفاق الذي وقّعوه في واشنطن بجوٍ من التأييد المعنوي الدّولي والعربي لم يسبقْ أن حظيَتْ به مسألةٌ من مسائل المنطقة العربية في العصر الحديث. ويحيطونه كذلك بدعمٍ مادي أممي لم تعرف لهُ المنطقة العربية مثيلاً في سخائه وسرعةِ تحركه.

٤– خلاصة هذه الملاحظات العملية الأولّية أنّه ما لم يبرزْ تحوّلٌ مفاجئ في المعطيات، فإنّ الاتفاق سائر الى تطبيق سريع. وهذا أمر سيحيل الصراعَ إلى مرحلة جديدة ذات آفاق جديدة ومعطيات جديدة وأدوات جديدة. وفي هذه الحالة قد يكون السّكونُ العربي مؤشّراً إيجابياً في المدى التاريخي الطويل للصراع، بما يحمله من يأس من الأساليب القديمة التقليدية للمواجهة – وهي أساليبُ أثبتتْ عُقمَها في أسوأ الاحوال، وقصورَها عن مستويات التحدي في أحسن الأحوال – وبما يحمله من تحفّزٍ محتمل لأجواء المرحلة الجديدة القادمة وحقائقها وأدواتها. وهذه المرحلة الجديدة قد يكون من أهمّ ملامحها استفزازُ الحيوية التاريخية للأمّة العربية، بأعمق ممّا استفزتها المرحلةُ السابقة.

في المجال القِيَميّ والأخلاقي

إنّ فخامةَ الإخراج الإعلامي الهوليودي الذي أُحيط به الاتفاق في البيت الأبيض، وكلّ عبارات التبشير الرسولي الكاذب التي حاول الرئيسُ الأميركي أنْ يُلْبِس بهاالاتفاقَ ثوباً حضارياً مُهيباً، وكلّ وسائل الدعم المادي والسياسي التي مَنحت الاتفاقَ وتَمنحه على صعيد التطبيق العملي زخماً غيرَ عادي... إنّ كلّ ذلك لا يمكن أن يُخفي الحقيقةَ الأساسية التي تقول إنّ هذه العملية في جوهرها ما هي إلا حلقةٌ من التزوير التاريخي تُضاف إلى حلقات التزوير الأخرى التي تأسّس عليها المشروعُ الغربي / الصهيوني في أرض فلسطين العربية. وهو تزْويرٌ نموذجي يشمل التاريخَ والسياسة والأخلاق:

أ– ففي التاريخ، ورغم هشاشة مقولة

*كاتب لبناني.

«أرض الميعاد» التي تأسّس عليها المشروعُ الصهيوني، فإنّ الاتفاق السياسي الجديد ينزع عن هذا الأساس التاريخي الهشّ ما كان يستر عوْرَته. وهكذا يكتشف الغربُ فجأةً أنّ مشروعه السياسي على أرض فلسطين ليس بحاجة إلى كامل مساحة «أرض الميعاد» كما رُسمتْ حدودها في النصوص التوراتية (وهي حدود فضفاضةٌ على أيّ حال). ولعلّ هذا هو جوهر الصراع الذي يشتدّ الآن (ولا يعرفُ أحد مداه) بين الصهيونية السياسية والصهيونية الدينية. فلقد أصبح واضحاً أنّ مقولة «أرض الميعاد» لم تكن بالنسبة للصهيونية السياسية (والغرب من ورائها) أكثرَ من ضجّة سياسية قابلة للتمدد والتقلّص، ولكنّها بالنسبة للصهيونية الدينية فِعْلُ إيمان مطلق لا تجوز فيه المساومة.

وعلى أهميّة ذلك كلّه، فها هي الاكتشافاتُ الجديدةُ في علم التاريخ في الأوساط الغربيّة، واستناداً الى أبحاث أثرية علمية بحتة، تنسفُ من الجذور جدّيةَ الاعتماد على النصوص التوراتية أساساً للتاريخ القديم الخاصّ بهذه المنطقة من العالم. ولا شكّ أنّ مثل هذه الاكتشافات تشكّل «كرة ثلج» علميةً ماتزال في مرحلة تكوينها الأولى.

ب- وأمّا في السياسة، فإنّ التزوير التاريخي ماانفكّ يتراكم، هو الآخر، مرحلةً فوق مرحلة. ففي المرحلة النظريّة لمشروع إنشاء دولة يهودية على أرض فلسطين كان المشروع يدّعي أنّه أُنشئ لِحلّ مشكلة اليهود المنتشرين في جميع أنحاء الكرة الأرضية. وأمّا الحقيقة فكانت ومازالت تقول الآتي:

إنّ المشكلة اليهودية هي جزء من مشاكل الحضارة الغربية؛ وأنّ العنصرية العميقة المضادّة لليهود تكمن في الأسس الحديثة لهذه الحضارة بالذات؛ وأنّ حلّ المشكلة المنطقي كان ومايزال في اجتثاث هذه الظاهرة الغربية من جذورها؛ وأنّ دولة إسرائيل - التي لا بدّ في النهاية أن تلتزم بحدود واضحة مهما كانت درجة الضعف الفلسطيني والعربي عند تطبيق الاتفاق الجديد -لا يمكن أن تستوعب أكثرَ من ثلث يهود العالم في أعلى تقديرٍ رقمي.

وأمّا التزوير السياسيّ الرديف، فهو التوهّم والإيهام بأنّ الاتفاق الأخير يُقدّم حلّا لمشكلة الشعب الفلسطيني المتشرّد منذ عام ١٩٤٨.

وهكذا يتّضح أنّ الغرب يندفع في كلّ مرحلة إلى تحقيق مشروع سياسي يناسب مصالحه بالكامل. إنّ الكوارث التي تتراكم مرحلةً بعد مرحلة - وهي كوارث ذات طبيعة مركّبة متوالدة - تترحّل إلى مرحلة لاحقة وإلى أجيال لاحقة. ويكبر حجمُ التزوير التاريخي يوماً بعد يوم، ويتضّح أنّ الغرب لا يهمّه سوى تحقيقِ مصالحه بكلّ شراهةٍ وأنانيّة؛ بل هو يفاقم المشكلات ويعقّدها ويضخّمها سواء بالنسبة للعرب أو بالنسبة لليهود أنفسهم.

ج - وأمّا على صعيد القيم والأخلاق، فإنّ بهرج الإخراج التلفزيوني الهوليودي في احتفال التوقيع في البيت الأبيض - وهو الإخراج الذي حاول تصويرَ الاتفاق على أنّه انتصارٌ للتعقّل على الحماقة، وانتصارٌ للعقل على الغريزة، وانتصارٌ للسلام على الحرب، وانتصارٌ للحضارة على التخلّف، وانتصارٌ لروح المصالحة على روح العداء- لا يُمكن لِضجيجه الآنيّ أنْ يُخفيَ الحقيقةَ التي تقول إنّ كلّ نجاحات الغرب في سياق ها المشروع لم تكن في يوم من الأيام على صعيد القيم والأخلاق سوى انتصار القوّة على الضعف. غير أنّ هذا الانتصار يرتفع في هذه اللّحظة التاريخية بالذات إلى ذروة عالية من اللاأخلاقية لم يبْلُغها من قبْلُ. ذلك أنّ القويّ / الجلاد لا يكتفي بإخضاع الضعيف / الضحيّة إخضاعاً كُليّاً؛ بل يُروّضها حتى يدفع بها إلى تقبيل يده، والاعتراف بفضله، والاعتذار منه عن كلّ ما كان يساورها من إحساسٍ بالظلم وعن كلّ ما فعلته في سعيها إلى دفع هذا الظلم.

إنّ الشعور بالخزي اللا أخلاقي الكامل كان أحرى بذلك الاحتفال الهوليودي الغوغائي في البيت الأبيض، وبكلّ من أعدّ له وشارك فيه. غير أنّ الوضع الآن يبدو عكس ذلك تماماً، وسيظل يبدو عكس ذلك، وستتكرّر مشاهدُ انتصار الباطل القوي على الحق الضعيف، إلى أنْ يهتدي أصحابُ الحقّ إلى ينبوع القوّة الحقيقية الوحيد الحيويّة الحضارية الشاملة، فيشربوا منه حتّى الارتواء الكامل، كما سبق لأجدادهم أن فعلوا!